أنماط السلوك

obeikan.com

obeikan.com

أنماط السلوك

كثر الحديث فى هذه الأيام عن أنماط من السلوك ، شاعت فى المجتمع ، ولم تكن موجودة من قبل ، فارتفع ضجيج الشكوى من ارتفاع نسبة المنحرفين ، وأطفال الشوارع ، والاغتصاب ، وانتشار المخدرات بأنواعها المختلفة ، وشيوع الفساد الأخلاقى ، وكثرة السلب والنهب بين جميع شرائح المجتمع ، من قاعه حتى قمته ، كلٌّ بأسلوبه ، وإمكاناته ، والقوى التى يرتكز عليها ويحتمى بها ، حتى أصبح كل هذا ظواهر فى المجتمع ، يتحدث الناس عنها فى وسائل الإعلام المختلفة ، وتدور حولها أحاديث المجالس والمنتديات ، ويتفكه الظرفاء بإطلاق النكات والقفشات على من يمارسها .

وقد أدى انتشار هذه الظواهر فى المجتمع إلى إيقاظ همم الباحثين والخبراء ، وتوجههم إلى بحث أسبابها ودوافعها ، ومحاولة وضع ما يرونه من خطط تؤدى إلى معالجتها ، أو الحد من غلوائها ، فكثرت الأبحاث التى أجريت حول هذه المشكلة ، وتعددت الكتب والنشرات العلمية ، التى ركزت على بيان أسبابها ودوافعها ، فقد كتب الدكتور محمد المهدى ، استشارى الطب النفسى بحثاً تحت عنوان : " الشخصية المصرية " نشره فى شبكة المعلومات الدولية ، بين فيه أسباب هذه الظواهر السلبية ، فقال :

" نستطيع أن نرصد عدداً من العوامل الرئيسة التى أدت إلى تلك التغيرات فى السمات الأصلية للشخصية المصرية ومنها :

- **ثورة يوليو وما صاحبها من تغييرات جذرية** : (بعضها ايجابى وهو ما يتصل بالتحرر الوطنى وطرد المستعمر ، وأكثرها سلبى وهو ما يتصل بالحكم الإستبدادى البوليسى) أدت إلى تغيرات فى البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، وهزت البنية القيمية حيث أشاعت قيماً استبدادية قهرية ، وأرست قواعد الاعتمادية على النظام ، والسلبية ، والفهلوة ، وادعاءات البطولة الزائفة , والسير وراء الزعيم بأعين مغمضة وأصوات هاتفة وقلوب مليئة بالحماس الجارف بلا دليل . باختصار أحدثت الثورة

ورجالها تناقضات هائلة فى البنية النفسية للشخصية المصرية تحتاج لبحث منفصل لبيان مداها .

٢- **نكسة يونيو ١٩٦٧** : وقد كانت قمة التعبير عن خداع الذات والتسليم لزعامات " كاريزمية " بعيدة عن التخطيط السليم والموضوعية . حدثت بعدها صدمات وتغيرات جذرية أخرى فى الشخصية المصرية حيث راحت تبحث عن هوية دينية بعد فشل الهوية القومية الاشتراكية التى نادى بها زعماء الثورة ومنظروها ، ومن هنا بدأت التيارات الدينية المعتدلة والمتطرفة فى مصر ، وامتدت إلى العالم العربى والإسلامى تحت وطأة المواجهة البوليسية القاسية لتلك التيارات .

٣- **معاهدة السلام مع إسرائيل** : وما تبعها من تغيرات سريعة ومفاجئة لكثير من المفاهيم حول إسرائيل كعدو أساسى ، والارتماء بعد ذلك فى الحضن الأمريكى وماتبعه من تغيرات ثقافية واجتماعية بناءً على التفاعل مع ثقافات غريبة تستقبلها الشخصية المصرية بمشاعر متناقضة وبشكل أسرع من طريقتها وطبيعتها فى استيعاب وهضم وتمصير الثقافات الأخرى .

٤- **الإنفتاح الاقتصادى المنفلت** : وما تبعه من تنامى القيم الإستهلاكية ، والرغبة فى الثراء السريع دون جهد حقيقى ، وشيوع قيم الخفة والفهلوة وانتهاز الفرص .

٥- **السفر إلى بلاد الخليج وغيرها من الدول العربية** : وما تبع ذلك من تغير الأنماط الإستهلاكية والثقافية والدينية تبعاً للنموذج الخليجى ، مما أدى إلى زعزعة استقرار النماذج القائمة والمستقرة منذ قرون لصالح النموذج السلفى من ناحية أو النموذج المستغرب من ناحية أخرى .

٦- **العولمة وما أدت إليه من فتح السماوات للقنوات الفضائية والإنترنت** : وفتح الأسواق لكل ماهو جديد ، وفتح شهية المتلقى للمزيد من الجديد والغريب والمثير .

٧- **قانون الطوارئ الذى امتد العمل به لمدة ٢٥ سنة** : (وما زال حتى كتابة هذه السطور عام ٢٠٠٥ م , ١٤٢٥ هـ — ولا يدرى أحد متى يتوقف العمل به) ، بحيث أدى إلى شيوع حالة من القهر والخوف ، وانعدام الثقة بين السلطة والشعب ، وأطلق

يد السلطة الأمنية فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس (تعيينات الوظائف على كل المستويات , والترقيات ، واختيار الوظائف القيادية ، والإنتخابات ، والبعثات ، وكل شئ) ، وأطفأ النبض الحقيقى على المستويات السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية ، وأتاح الفرصة لتغلغل الفساد المحتمى بالسلطة ووصول عناصر تفتقر إلى الكفاءة والضمير إلى مراكز عليا تحت سقف الطاعة والولاء ، فى نفس الوقت الذى ابتعدت فيه (أو استبعدت) العناصر الموهوبة والمتميزة عن مراكز التأثير والتوجيه ، أما بقية الناس فقد تحولوا إلى أغلبية صامتة تسعى إلى أن تحصل على لقمة عيشها وعيش أبنائها ، ولكى تتقى سطوة السلطة المطلقة تحت مظلة قانون الطوارئ لجأت إلى تعلم مهارات الفهلوة والتحايل والكذب والالتواء والتخفى والتنازل عن أشياء كان يعتز بها المصريون مثل الكرامة والضمير والصدق والشهامة ، واستبدل كل هذا بحالة من الخنوع والخداع والنفاق والتحايل ومد اليد تسولاً أو رشوة أو سرقة .

ورغم التحولات الحادثة فى السمات الست للشخصية المصرية إلا أن الشخصية المصرية تعتبر نسبياً أكثر ثباتاً خاصة فى مواجهة تغيرات العولمة , حيث نجد أن مجتمعات عربية أخرى قد ذابت تماماً أو تكاد فى النظام العالمى الجديد بكل سلبياته وإيجابياته , وربما يعود ذلك الثبات النسبى للشخصية المصرية إلى تراكم سماتها فى طبقات حضارية عبر عصور طويلة وتأكد هذه السمات مع الزمن رغم التغيرات الطارئة , كما أن المصرى لديه ميل قوى للإبقاء على الأوضاع القائمة يعود لتأثره بالطبيعة الجغرافية والمناخية . "

وعلى الرغم من تحفظنا على بعض هذه النقاط ، فقد نقلناها كلها ، لأنها تعبر عن رأى كثير من الكتاب والمفكرين فى هذا الصدد ، غير أننا نضيف إليها ما يلى :

الجانب الاقتصادى : إذ أنه يمثل جانباً كبيراً فى ظهور كثير من الظواهر السلبية فى المجتمع ، مثل : الطمع ، والاستغلال ، والنصب والاحتيال . فتحت وطأة العوز والحاجة ، وعدم التكافل الاجتماعى ، وغياب المؤسسات الاجتماعية – إلى حد ما – التى تساعد الفقراء والمحتاجين ، وتعين الضعفاء والمساكين ، وتأخذ بأيديهم ، كى يعيشوا حياة إنسانية ، يحاول هؤلاء تحت ضغط مطالب الحياة تبرير ما يباشرونه من سرقة ، واحتيال ، وابتزاز .

غياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام : إذ شاع بين الناس أن الإسلام ينحصر فى أداء العبادات (صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج) ، فمن أدى هذه الشعائر ، فقد أبرأ ذمته فى الجانب الدينى ، وما عدا ذلك ، فهو يتصرف فيه طبقاً للمعطيات السلوكية فى المجتمع ؛ فهو يسرق من أخيه ، لأن بعض الكبار استحلوا ذلك لهم ، وهو يكذب لأنه يرى شخصيات مرموقة فى المجتمع يجرى الكذب على ألسنتها صباح مساء ، وهو يسلك سبلاً غير مشروعة لجمع المال ، لأن غيره قد تضخمت ثروته من طرق ، لا يقرها قانون ، ولا تقبلها شريعة ، ومع ذلك تصاغ فى نزاهته ووطنيته المقالات ، وتنشد فى طهارته القصائد والأغانى ، ويلتف حوله المداحون والمنشدون .

فلماذا لا يفعل مثلهم ، حتى يتخلص مما هو فيه من ألم الجوع ، ووجع الحرمان ؟ !!!!!

فلو تخلص الخطاب الدينى من شوائبه ، وخرج من القوقعة التى تشرنق فيها ، فبين للناس أن الإسلام ليس دين طقوس كغيره من الأديان ، ولكنه دين عبادة وحياة ، يرسم الطريق الصحيح لحياة كريمة ، فيدعو الناس إلى العمل ، ويدفعهم دفعاً إلى السعى فى الأرض لتحصيل الرزق من طرق مشروعة ، ليس فيها استغلال ، ولا تضليل ، بل جد واجتهاد ، وسعى وعمل ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الجمعة : ٩ – ١٠] ، لم يقل : أمكثوا فى المسجد للتسبيح والتهليل ، بل اخرجوا واسعوا إلى رزقكم ، وامشوا فى مناكب الأرض لتعمروها . كما روى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " **والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه .**" [١٢] ، فإذا كان الحديث ينفر الناس من السؤال ، وهو أخذ مال الغير بأسلوب ، يظنه الناس أنه ليس فيه خداع ، فما بالك بمن يخدع الآخرين ليأخذ مالهم ، ومن يسلك مسالك معوجة

---

[١٢] صحيح البخارى : حـ ٢ صـ ٥٣٥ رقم ١٤٠١

ليستولى على ما ليس له ، ومن ينهب الثروات بطرق لا يرضى عنها الله ورسوله ، ولا تقبلها النفس المطمئنة بالإيمان ، ولا تقرها القلوب الصافية من دنس الشرك ، وشوائب الجشع والطمع .

فقدان القدوة : فمما لاشك فيه أن القدوة من أهم أساليب التربية الصحيحة فى المجتمع ، فالبيت قدوة للطفل ينعكس عليه ما يجرى فيه ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر . والمدرسة قدوة للتلميذ – وخاصة مدرس الفصل – فإذا كان فى تصرفات القائمين على شئون الدراسة فى المدرسة اعوجاج والتواء ، انعكس ذلك فى نفسية التلاميذ ، وأستاذ الجامعة نموذج يحتذيه الطلاب ، فإذا كان سيئاً خَرَّج طلاباً غير صالحين للمجتمع .

فإذا بحثنا عن القدوة الصالحة فى المجتمع ، وجدناها قد اختفت وراء نماذج سيئة ، إذ تغرس الأسرة بسلوك أفرادها السيء صفات غير حميدة (كالكذب ، والنميمة ، وعدم الوفاء بالوعد ، وخداع الآخرين واستغلالهم ، والطمع فيما لدى الآخر ، ...و...و...إلخ) فى الطفل ، فهو يقلد ما يراه فى أسرته ، كما ينعكس على نفس التلميذ ما يراه من المدرس من التهاون فى الشرح ، أو العصبية مع التلاميذ ، أو محاولة استغلالهم بالدروس الخصوصية ...أو .....أو ...إلخ . وكذلك الأمر مع أستاذ الجامعة ؛ إذ بغيابه عن المحاضرات ، أو دخوله المدرج متأخراً ، وعدم التزامه الموضوعية فى عرض القضايا العلمية مع غياب طرح المسائل العلمية للمناقشة معهم ...و.....و....إلخ مما ينتج عنه نماذج غير سوية من البشر . وهذا هو السبب الأول فى شيوع أنماط من السلوك لا تساعد على خلق مجتمع قوى ، قادر على الإنتاج ، والإبداع ، والابتكار .

انتشار العشوائيات فى مجال الخطاب الدينى : وأعنى به أن الحديث فى الدين ، وعن الدين ، لم يعد مقصوراً على المتخصصين فى العلوم الإسلامية ، أى الذين تلقوا تعليمهم فى الكليات الشرعية المتخصصة ، بل أصبح المجال " سداح مداح لكل من هب ودب "، فنرى أناساً ، بضاعتهم مزجاة فى العلوم الدينية ، يتصدرون للإفتاء ، والحديث فى الفضائيات عن تعاليم الإسلام التى لم يفقهوها – بل لم يدرسوها – ، فاختلط الأمر على جمهور المسلمين ، لأنهم يسمعون من هؤلاء أحكاماً لا تتناسب مع طبيعة حياتهم ، وفتاوى تحرم عليهم أموراً لا تستقيم الحياة إلا بها ، مما أدخل الشك فى قلوب كثير من الناس فى صلاحية الإسلام للحياة المعاصرة ، فانصرفوا عنه فى سلوكهم ، وغضوا الطرف عن تعاليم دينهم ، فاكتفوا بأداء العبادات فقط . ومنهم من أمعن فى

التشدد والالتزام بما يقوله غير المتخصصين ، فأصبحوا بتشددهم وانكفائهم على الذات غرباء فى مجتمعهم ، بعيدين عن تعاليم الإسلام السمحة ، التى تتناغم مع حياة الإنسان ، وذلك بتلبية مطالب الحياة فى المجتمعات الإنسانية ، على اختلاف أوطانها وأزمانها .

ولو استعرضنا آراء هؤلاء ، لوجدنا أن معظمها يُنَفِّر من الإسلام ، ويحمل قطاعات كبيرة من المجتمع على الانحياز لآراء من تنكر للماضى ، ورفض أن يكون للتراث مكان فى حياتهم ، ومن أشهر تلك الآراء :

الادعاء بأن الإسلام يحرم الديمقراطية[١٣] : يوحى بأنه يدعم الديكتاتورية ، ويحث المسلمين على الدفاع عنها ورعايتها .

تحريم تعدد الأحزاب فى المجال السياسى : يصوِّر للناس أن الإسلام لا يسمح بتعدد الآراء فى أسلوب الحكم ، واختلاف الأساليب فى تنظيم مؤسسات الدولة ، مفضلاً عليها توحد الرأى ، حيث يترتب عليه الجمود ، وانفراد مجموعة بالحكم على غرار الحزب الواحد فى النظم الديكتاتورية .

رفض التعامل مع معطيات العصر الحضارية : يؤكد رأى المعارضين لدور الإسلام فى الدولة المعاصرة فى أن الإسلام يدعو للجمود والتخلف ، ويحارب الإبداع والابتكار ، مفضلاً عليه التقليد ، والثبات على موروث الماضى .... حتى وإن كان غير صالح للحياة العصرية .

محاربة الانفتاح على الثقافات الأخرى بحجة الخوف من الغزو الثقافى :

يرسم صورة غير صحيحة عن موقف الإسلام من المعرفة ؛ إذ يؤكد لغير المسلمين — ولقطاعات واسعة من المثقفين المسلمين — أن الإسلام لا يُقيِّم المعارف على أساس موضوعى ، ولا يتعامل مع الثقافات بمنطق واقع الإنسان ، ومصالح المجتمعات ، فهو لا يمد جسور الاتصال مع الإنتاج الفكرى

---

[١٣] يقول أحد رموز هذا الاتجاه : " من الأسباب التى تجعلنا نرفض المذهب الديمقراطى ، أن الديمقراطية تقوم على رأى الأغلبية ، فمعنى ذلك أن رأى الأغلبية هو المعيار لمعرفة ما هو عادل ومعقول ، وبناءً علي هذا المبد ، نجد أن رؤساء الأحزاب يحاولون كسب أكبر عدد ممكن من الأشخاص ، ولو كان ذلك على حساب الإيمان والكرامة ، والدين والشرف ، من أجل هدف — وحيد هو كسب أصواتهم فى المعارك الانتخابية . أما نحن ، أهل السنة ، فنعتقد بأن الحق لا يظهر إلا فى دلائل الشريعة الحاسمة ، ولا يتجلى فى عدد الأصوات المشتركة ، ولا فى عدد الأصوات الديماجوجية .... إن شعار " الديمقراطية " الذى ينادى به البعض ليس إلا تمريحاً " (برجا ص ١٤٠ -١٤١) .

للمجتمعات الأخرى ، بل يدمرها ، إن كانت قائمة ، وذلك بتحريم كل ثقافة لا تنبع من داخل مجتمعه ، وتحريم كل من يميل – مجرد ميل عاطفى – إلى الثقافات الأجنبية ، فضلاً عن الاتصال بها ، والأخذ منها ... حتى ولو كانت ضرورية فى حياة الأمم المعاصرة [١٤] ولست متجنياً فى هذا على أحد ؛ فما زالت المطابع تخرج لنا عشرات الكتب ، التى تتحدث عن الغزو الثقافى ، وعن الأخطار المهولة ، التى ستصيب الأمة من جراء معرفة أبنائنا بما يفيد من ثقافة الغير ،

---

[١٤] يرى المحللون أن تزاوج الثقافات ، هو أحد العوامل الرئيسية فى نهضة الأمم والشعوب ، بل يكاد يكون العامل الأول فى مجال الإبداع الثقافى ، والتطور الفكرى . أدرك كثير من المفكرين العرب ، أن الاتصال بالثقافات الأخرى يلعب دوراً كبيراً فى تجاوز الأزمات الثقافية ، التى تصيب الشعوب من جراء الانطواء والتقوقع على الذات ، فقد كتب عبد القدر العمراوى تحت عنوان : " حاجتنا إلى ثقافة مزدوجة " : " توالت الصرخات منذ عدة سنين ، وتكاثر تساؤل اليقظين من بنى الأمة عن الأسباب العميقة لهذه الأزمة ، أزمة الإنتاج الثقافى التى تجتاح المغرب ، فتلقى فى النفوس الحيرة ، والقلق ، والتخوف من عواقبها الوخيمة ، ففى الوقت الذى نرى فيه المغرب يخطو خطوات واسعة إلى الأمام ، ويسجل تقدماً يدعو إلى التفاؤل فى الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، نرى أنه من الناحية الثقافية ، أو بتعبير أدق من ناحية الإنتاج الثقافى ، قد ظل كما كان عليه منذ أزيد من عشر سنين لم يلاحظ فيه أى تطور فى الكم ، ولا فى الكيف " . ويتساءل : " فما هى الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة الغريبة ؟ " ،ويجيب ملاحظاً أن الأزمة ستستمر لمدة أطول " ذلك لأن العناصر التى من شأنها أن تنتج إنتاجاً يفى بما تتطلبه روح العصر من جهة ، ومقومات القومية المغربية من جهة أخرى ، هم أبعد الناس أن يؤدوا رسالتهم الثقافية كما يجب ، سواء منهم الذين أشبعوا بثقافتنا الوطنية التقليدية ، أو بالثقافة الغربية الخالصة ، فالأولون قد فشت بضاعتهم العلمية ، وانعدمت لديهم كثير من الوسائل الثقافية ، التى من شأنها أن تجعلهم دوماً ، وعلى استمرار ، فى ركب – – القافلة الإنسانية ، التى تحث السير ، وتسرع الخطوات . أما الآخرون فلهم من ثقافتهم الغربية الخالصة ما يجعلهم غرباء فى أمتهم ، ومجتمع هو مجتمعهم " ، ويمضى الكاتب فى تحليل حالة كل فريق ، وإمكاناته ليخلص إلى نتيجة ، ن الحل الذى من شأنه أن يخفف من حدة الأزمة ، ويقصر من أمدها هو : " الاعتراف بأن – المثقف المغربى (....) فى حاجة إلى أن يجمع بين الثقافتين ، ويقح أحدهما بالأخرى (....) ، فإذا نحن أبينا الاستمرار فى ذلك الظن الخاطئ ، الذى يرى أن ثقافتنا التقليدية بمفردها كفيلة بأن تهيء لنا شباباً مثقفين خليقين بحمل هذا الاسم ، فإن الأزمة لن تزداد إلا تعقيداً وخطورة " ، ويختم الكاتب مقالته بعبارة لها دلالتها ، خاصة بالنسبة " لضرورة التزاوج الثقافى "، فيقول : " هذا وإن الضرورة الملحة العاجلة لتقضى بمحاولة التقريب بين العنصرين ، قصد التفاهم ، والتعاضد ، والتعاون ، كخطوة أولى للمصهرة والازدواج ، ثم النسل والإنتاج . " [الحركات الإسلامية المعاصرة فى الوطن العربى صـ ٢١٤]

- ضاربين – أى مؤلفى هذه الكتب – عرض الحائط بحتمية الاتصال بالثقافات الأخرى ، إن أردنا مواكبة التطور [١٥]

- وناسين – أو متناسين – قول الرسول ﷺ : " **الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها** " ، أى فى أى مكان وجدها .... حتى وإن كانت عند ملحدين ، يحاربون الله ورسوله .

- وغافلين عن أن الاتصال بالثقافات الأجنبية فى صدر الإسلام كان من أهم العوامل التى ساعدت على بناء نهضة المسلمين فى عصور الازدهار والتقدم ، التى لازلنا نتغنى بها ، ونحلم برجوعها حتى الآن .

وبالإضافة إلى هذه الإساءات ، التى يتسبب فيها هذا الفريق فى مجال الصراع الحضارى بين الإسلام والتيارات المعاصرة ، يلجأ فى دفاعه عن الإسلام إلى مواقف وآراء تسيء إليه ، فهو كمن يستعمل سلاحاً يرتد إلى نحره ، دون أن يدرى ، فيساعد عدوه بذلك على النيل منه ، ويكفى المرء أن يتمعن فى هذه السلوكيات ، ليتأكد من ذلك :

- الاهتمام الزائد بالأمور الفرعية ، لدرجة الطغيان على الأساسيات ، بما يعجزنا عن الوصول إلى الأهداف فى مجال الحياة المختلفة .

- التركيز على اجتهادات فردية ، ورفع درجتها إلى مقام النص المترل ، الذى يترتب على إنكاره كفر من أنكره .

- إعلان الحرب سافرة على مؤسسات السلطة التنفيذية ، ومحاربة كل من تتفق آراؤه معها من المفكرين ..... حتى ولو كان هذا الاتفاق مجرداً من الهوى ، وبعيداً عن التواطؤ ، ومبرأً من تبادل المنافع ، ومقايضة المصالح بين الطرفين .

- التمسك بمظاهر وسلوكيات لا تعبر عن روح الإسلام ، بل تشوهها وتمسخها ، فضلاً عن أنها توحى بقُطْرِيّة الإسلام ، وتنفى عالميته ، مثل : الادعاء بأن الزى الإسلامى ، هو الثوب

---

[١٥] إذ لم يعد هناك الآن مجتمع مغلق على ذاته " وباءً عليه ، فلا يمكن للمجتمع " الإسلامى " أن يعيش فى عزلة عن بقية أنحاء العالم ، أو يعزل نفسه عن المؤثرات الثقافية الخارجية ، التى تنقلها وسائل الإعلام والاتصال فى سهولة ويسر ، وبكثرة وكثافة هائلة . " [أحمد مصطفى أبو زيد ص ٣]

الأبيض والنعال ، ورفض كل ماعداه من الأزياء العالمية رفضاً يصل فى بعض الأحيان إلى التحريم .

- حصر الدراسة والتعليم فى مجال العلوم الدينية ، ورفض ما عداها من علوم ومعارف ، لدرجة أن بعض الشباب ترك دراسة الطب والهندسة وغيرها من العلوم التجريبية ، وانصرف إلى دراسة العلوم الدينية ، بحجة أنها هى وحدها التى يجب على الشباب المسلم دراستها ، لينال رضاء الله ويدخل الجنة .

- إقامة الشباب ليلاً ونهاراً بالمساجد ، يأكلون ، ويشربون ، وينامون فيه :

١. تاركين زوجاتهم محرومات من حقوقهن الزوجية ،

٢. ومهملين أولادهم ، دون رعاية معنوية ، وقد ينسون — أو يتناسون — إمدادهم بالطعام والكساء ، وتهيئة الظروف لتثقيفهم وتأديبهم ،

٣. ومفرطين فى حقوق الوطن عليهم فى مجال العمل والإنتاج ،

٤. ومعزولين عن الحياة العامة ، التى فطر الله الإنسان عليها ، لتعمير الأرض ، وإخراج الطيبات منها ، ورعايتها حتى تنتظم حياة الفرد والجماعات فى نغم متناسق ، ولحن يطرب من يعيشها ، فتفيض السعادة فى قلوب الناس ، ويعم الفرح أرجاء المعمورة .

٥. عدم السماح بأى رأى مخالف — مهما كانت أدلته ، حتى ولو كان مستنداً إلى مرويات صحيحة — لأنهم فُطِروا على رفض ما ليس عندهم ، بل محاربته بصورة تؤكد لمن لم يكن متخصصاً فى العلوم الإسلامية ، أن الإسلام لا يسمح بحرية الآراء وتعددها فى المجتمع .

ومن المؤسف أن بعض المتخصصين فى العلوم الإسلامية يعتنقون هذا الاتجاه ، ويدافعون عنه - بل يصلون أحياناً إلى درجة التعصب له بصورة تفوق حماس أنصاف العلماء الذين ركبوا هذه الموجة — طمعاً فى جاه أو مال . وتتعدى حدود نشاط من انضموا إلى هذا التيار من المفكرين - ذوى الماضى المعادى للإسلام ، والمناوئ له — لتنفيذ مخطط مرسوم لهم من قوى عظمى ، أو لتبديل جلودهم ، بعد ما ساء وضعهم بتغير الظروف الدولية ، واختلاط الأوراق الفكرية فى المجتمع .

ولا يخفف من وضع هذه الصورة القاتمة فى النفوس ، ما هو معروف ، ومسلم به ، من أن هذا هو الوضع الطبيعى للمجتمعات الإنسانية ؛ صراع دائم بين القديم والحديث ، يمثلهما تياران

متقابلان ، مع وجود تيارات أخرى بدرجات متفاوتة ، لأن الصراع فى المجتمعات الإسلامية تجاوز حد هذه الصورة الضرورية من النقاش والحوار ، الذى هو وقود لازم لدفع مسيرة المجتمع إلى التقدم والازدهار ، فأصبح سلاحاً مدمراً ، سيطر الجاهلون المتشنجون ، وأنصاف العلماء ، الغافلون ، مع توجيه بعض العلماء المستفيدين ، مما جعل الأمر يخرج عن نطاق الحوار ، إلى المنابذة بالألفاظ الجارحة ، أقلها : الزندقة ، والتحلل ، وأكثرها : الكفر والإلحاد ، وبينهما اتهامات كثيرة تتعلق بالعرض ، والأخلاق ، فتنال الأهل ، والأقارب ، والأصحاب أيضاً .

وليس من النادر أن يصل هذا الانحراف عن الأسلوب البناء فى اختلاف الرأى إلى الاغتيال الأدبى ، أو الاختناق المادى ... حتى التصفية الجسدية التى تسكت الصوت المعارض ، وترعب الآخرين فتتحشرج أصواتهم ، أو تسكت إلى حين .

ماذا نفعل إزاء هذا الوضع ؟

هل نكمم أفواهنا ، حتى نتجنب الوقوع فى مآزق مالية ، ونسلم من التجريح والإهانة ؟ هل نتوارى ، حتى لا تصيبنا سهام أعداء حرية الفكر ، ونبال المحاربين للإبداع الإنسانى ؟

لو حدث هذا لكان تحريراً لشهادة وفاة المجتمع ، وتشييعاً لجنازة الوجود الإنسانى ، ودفناً لبراعم التقدم والحضارة اليانعة .

ولقد كدت أن أقول بأن هذا حدث فى المجتمعات الإسلامية ، لولا ومضات هنا وهناك ، أشعلها التيار الإسلامى المستنير ، فهى وإن كان ضوءها خافتاً ، تتلاعب به رياح عاتية من الداخل والخارج ، إلا أنها تعطى أملاً فى إمكانية عودة الروح الإسلامية الصحيحة ، التى تمثل الاعتدال ، وتحارب التشدد والتنطع ، فتعبر عن سماحة الإسلام فى مجال حرية الفكر ، وتنبذ التعصب والجمود ، بل تحاربه بالكشف عن النصوص الإسلامية فى الكتاب والسنة ، التى توصى المسلمين بالرفق مع المخالفين ، وتدعوهم إلى الانطلاق فى آفاق الفكر ، بعيداً عن

- سجن التقليد ،
- ترديد آراء السابقين دون فهم وتمحيص ،

- تغييب العقول ، بحجة الالتزام بما قاله الأولون ، والسير على خطى السابقين ، لأن آراءهم اجتهادات إنسانية ، مربوطة بعصر معين ، وثقافات محددة .

ولا يتسع المقام لبيان جميع أنماط السلوك التى ظهرت فى الآونة الأخيرة فى المجتمعات الإسلامية ، ولهذا يقتضى المقام أن نضيف إلى ما سبق بعضاً من أنماط السلوك العامة التى تؤثر تأثراً واسعاً وكبيراً فى حياة الناس ، وهى :

١. التسامح : من الصفات الحميدة فى السلوك الإنسانى ، وهو أسلوب حضارى يحاول كل إنسان أن يتحلى به ، ليبدو أمام الآخرين متحضراً ؛ إذ بينه وبين الحضارة علاقة قيمية ، فهو من قيم الحضارة ، وأساس من الأسس التى يقوم عليها البناء الحضارى ، وهو من السمات البارزة فى حياة الشعوب المتحضرة ، ومن هنا جاء الحث عليه فى النصوص المقدسة ، ففى الإنجيل " **من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً** "[١٦] ، ولا يقدر على هذا إلا إنسان متدين ومتحضر ضربت التعاليم الدينية بجذورها فى أعماق نفسه ، وتشربت جوارحه بالتعاليم والأعراف الحضارية .

ومن أوضح التعاليم التى تحث على التسامح ، ما جاء فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية الشريفة ، ففى القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، ويقول: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ويقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، ويقول : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، ويقول : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن : ١٤]

---

[١٦]) متى ٥ : ٣٩ .

وبناءً عليه فإن الحضارة الإسلامية كانت من أفضل الحضارات تسامحاً وعفواً مع الآخرين ، بل إنها أصبحت فى التاريخ الإنسانى علامة بارزة ، لا تدانيها أى حضارة إنسانية أخرى : فى عفوها ، وتسامحها مع غير المسلمين ، بل إن المسلمين تفوقوا على أصحاب الأديان الأخرى ، فى تعاملهم مع الذين كانوا يعيشون معهم من المخالفين لهم فى العقيدة ؛ إذ لا يستطيع أحد أن ينكر عطف المسلمين على اليهود والمسيحيين فى المجتمع الإسلامى ، فبينما كان اليهود – ولازالوا " غير مرغوب فيهم " – مضطهدين فى أماكن عدة من العالم ، كانوا يجدون الأمن والأمان فى ظل الدولة الإسلامية ، وينعمون بالفرص المتاحة لهم فى المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات ، فكانوا يقيمون شعائرهم فى حرية تامة ، ويمارسون نشاطهم التجارى بدون قيود أو عقبات من أى نوع كانت ، ويتمتعون بما يتاح للمسلمين من زينة الحياة الدنيا على حد سواء .

وكذلك الأمر مع المسيحيين ، فبينما كانوا مضطهدين من إخوانهم المسيحيين ، كانوا يجدون الملجأ والملاذ فى المجتمع الإسلامى ، ومن أوضح الأدلة على ذلك ما كان من اضطهاد المسيحيين الرومان لإخوانهم فى العقيدة فى مصر ، حتى أن كبير أساقفتهم " بنيامين " هرب إلى الصحراء ، واختفى بعيداً عن أعين الرومان خوفاً على حياته ، ولم يعد إلى كنيسته ، ويمارس نشاطه الدينى إلا بعد أن دخل عمرو بن العاص مصر ، وأمَّنه على نفسه وجماعته ، وأعطاه كل الصلاحيات فى إدارة شئون الكنيسة المسيحية فى مصر .

وكان هذا السلوك نابعاً من التربية الإسلامية ، المرتكزة على أساس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد غرس فيهم القرآن الكريم فضيلة التسامح مع أهل الأديان الأخرى ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون :٦] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة : ٦٢] ، ورباهم الرسول ﷺ على التعامل بالحسنى مع الآخرين ، فقد روى أن وفداً من نصارى نجران دخل على النبى ﷺ فسلموا عليه ، " وبعد أن رد سلامهم – بش فى وجوههم كشأنه عند لقاء الناس . ودخلوا عليه مسجده بعد العصر ، وقد صلوا متجهين إلى المشرق ، فأراد بعض

المسلمين منعهم ، ولكن النبى السمح الكريم قال للمانعين : **دعوهم** ، فصلوا مطمئنين . " [١٧] ، ثم حاوروه فى شأن عيسى عليه السلام فنزلت آيات عدة فيما طرحوه من أسئلة ، منها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٦٥ – ٦٨] ، وغير ذلك من الآيات التى تبين بطلان عقيدتهم فى عيسى عليه السلام إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران : ٦١] ، فأبو أن يقروا بذلك .

هكذا كان حال المسلمين مع اليهود والنصارى على امتداد التاريخ الإسلامى فقد " كان اليهود والنصارى والمسلمون يعيشون جنباً إلى جنب ، ويكونون نسيجاً مجتمعيًّا متماسكاً ومتعايشاً ، وكان للحكم الإسلامى دور كبير فى ترسيخ هذه التعددية ، فالإسلام بتعاليمه السمحة ، وصفة العالمية فيه ، ورفضه لكل أشكال القهر الاعتقادى ، أو التمييز العنصرى ، على أساس الجنس ، أو اللون ، أو الدين ، قد رسخ لمبدأ حرية العقيدة والمساواة ، وحقوق المواطنة للجميع ، على اختلاف انتماءاتهم ، وتنوعاتهم ، فكان الولاة والخلفاء والأمراء فى الدولة الإسلامية يتخذون من اليهود والنصارى وزراء ومستشارين . وكان اليهود إلى عهد قريب يملكون مشروعات اقتصادية ، كانت هى الأضخم فى مصر فى ذلك الوقت ، مثل : " عمر أفندى " و

---

[١٧]) أبو زهرة : جـ ٢ صـ ١٣٦٥ .

" صدناوى " و " عدس " و " ريفولى " وغيرها من المحلات والمشروعات التجارية الكبيرة . وكانوا يملكون ، بل ويسيطرون على تجارة الأقمشة فى حى الأزهر ذى السمت الإسلامى . وكان النصارى – وما يزالون – يملكون المشاريع الاقتصادية الضخمة ، التى يعمل فيها مسلمون ومسيحيون على السواء ، وبلا تمييز .

ولكن اليوم ، فى عصر سيطرة الحضارة الغربية على معظم مناطق المعمورة ، وفى عصر العولمة ، نجد " أن درجة تسامحنا قد أخذت فى التقلص والضمور خلال العقود الأخيرة بشكل مذهل ؛ فمنذ قرابة نصف القرن كان المناخ الثقافى العام لدينا مشحوناً بعدد من القيم الإنسانية المستقرة فى وجداننا بوجه عام ، وفى وجدان الطبقة التى تمثل قيادة المجتمع فكريًّا وثقافيًّا بوجه خاص ، وكان من هذه القيم : أن الاختلاف سنة من سنن الحياة ، ومعلم من معالم التواجد الإنسانى على الأرض . وكان هذا الجو الثقافى يجعلنا أبعد ما نكون عن " الصيغة الفكرية " ، التى نمت خلال السنوات الأخيرة، والتى تقسم الناس إلى " نحن " و " هم " ، وفى نفس الوقت تجعل " نحن " فى " رصيف الصواب " ، أما " هم " ففى " رصيف الخطأ " ، وهى صيغة أقل ما يقال عنها : إنها تتسم بالسمات التالية :

- إنها صيغة " غير إنسانية " و " عدوانية " ، وتشكل حالة تضاد فكرى ، وثقافى كاملة مع حقائق العصر العلمية والثقافية (وتخالف ما اصطلح عليه أسلافنا : رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب) .
- إنها صيغة " غير سلمية " ، بمعنى أن مسايرتها حياتنا أمر لا يؤدى لاشتراكنا فى حياة سلمية على الأرض مع الآخرين ، إذ أنها صيغة تقود إلى " المواجهة " و " التضاد " و " الصدام " مع الآخرين .
- إنها صيغة تخالف روح السلام ، والإنسانية العميقة الواردة فى أصولنا الحضارية الدينية : الإسلامية والمسيحية على السواء " [١٨]

ما ذا جرى لنا ؟ ، وماذا حدث لنا حتى غابت عن سلوكنا صفة التسامح ، وتوارت خلف سلوكيات غريبة عن ديننا ، وبعيدة عن تربيتنا الدينية الإسلامية ؟

---

[١٨]) طارق حجى صـ ١٩

كنا قبل قرابة خمسين سنة نعيش فى ظل مناخ ثقافى ، يسمح لمبدأ التسامح أن يحكم روحنا العامة ، إلا أن واقعنا قد شهد – فى سنوات لاحقة – أشكالاً من الفشل ، جعلت هذا المناخ الثقافى العام يتزلزل ؛ ففى صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧م تجسد الفشل الكامل لتيار سياسى برمته . وخلال السنوات التالية ، ظهرت معالم الفشل العام فى إدارة حياتنا الاقتصادية ، وتبع ذلك تشققات كبرى فى واقعنا الاجتماعى . ولما تجسدت تلك الأشكال المختلفة للفشل ، صار من حق البعض أن يظن أنه صاحب " طرح " أفضل . وعندما سمحت الظروف العامة لأصحاب هذا الطرح بأن يروجوا لطرحهم الفكرى ..... ظهر بوضوح أن هذا الطرح لا يحمل ذرة من التسامح الفكرى ، بل إنه التجسيد الأوضح أمام عيوننا لصيغة " نحن " و " هم " بكل ما تعنيه من مغالاة وتشدد . [١٩]

ماهو السبيل إلى عودتنا إلى ما كنا عليه من التسامح ، والعفو ، والمغفرة التى فقدناها ؟

لا سبيل إلا بالعودة إلى تعاليم ديننا السمحة ، التى تحث على التفاهم مع الآخر ، والاستماع إليه ، وقبول ما عنده من أفكار بناءة ، وقيم حضارية تتناغم مع مبادئنا ، وتنسجم مع تعاليم ديننا ، ولن يتحقق ذلك على أرض الواقع إلا بالتربية الدينية السمحة .

٢. تضخم الذات : من الظواهر السلوكية التى انتشرت فى المجتمع الإسلامى فى الآونة الأخيرة ، إطراء الذات ، والإشادة بالتميز عن الغير ، وهذه سلبية كبرى تجعل المرء لا يرى عيوبه ، فتتضخم ذاته ، ولا يبصر ما لدى الآخرين من أفكار فيتجمد على ما عنده ، مما يؤدى إلى عدم الموضوعية فى النظر إلى الأحداث والوقائع ، وما يلابسها من رؤى وأفكار . ويغلب على هذا الاتجاه النظرة إلى الماضى ، والغفلة عن الواقع ، والتغاضى عن المستقبل ، فيظل المجتمع يدور فى حلقة مفرغة ، يردد آثار الماضى ، ويتفاخر بـــ " أمجاد الحاضر " – من وجهة نظره – ، فهى فى الحقيقة أمجاد جوفاء ، لا مضمون لها ، وليس لها أثر إيجابى على الحاضر . وهذه هى السمة الغالبة فى وسائل الإعلام ، وفى تصريحات المسئولين ، والنغمة الغالبة فيما يكتبه كثير من المثقفين

---

[١٩]) المصدر السابق صـــ ٢٠

والمفكرين ..... حتى أصبحت لغة التخاطب بين العامة فى منتدياتهم ولقاءاتهم . وهذا سلوك سلبى ، يؤثر سلباً على مسيرة الإصلاح والتقدم ، فيحول دون اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، فصرنا بذلك نفتخر بما عندنا دون تفكير فيما حولنا فلا ندرك الأسلوب الحضارى ، ولا نفهم متطلبات الواقع ، بل تعالت أصواتنا بالعودة إلى سيرة السلف الصالح ، والالتزام بما جاء فى تراثنا من مبادئ ونظم وتعاليم ، والتمسك به ، مهما كانت الظروف والأحوال ، لأن ذلك :

- هو الطريق الوحيد – طبقاً لمفهوم دعاة هذا التيار الذى أطلق على نفسه " الصحوة الإسلامية " ، وعرف فى مجال الفكر الدولى بـ " التيار الأصولى " – لإخراجنا من المأزق الذى حصرنا الاستعمار فيه .
- والأسلوب الصحيح الذى نستعيد به قوتنا ، ونسترد به ما ضاع منا عبر قرون القهر والإذلال ، وسنين الضعف والتخاذل ، الذى أصابنا من جراء الاستعمار العسكرى والغزو الثقافى .
- والمنهج الواضح الذى يقودنا إلى عالم يستطيع المسلم فيه أن يكون سيد نفسه ، وقائد مسيرته ، لا يخضع لأحد ، ولا يستجدى فيه ما يحتاج إليه من إنسان ، فهو فى ظل هذا المنهج قادر على العطاء ، شجاع فى المواجهة ، صلب فى المحاورة ، له من الإمكانات ما يستطيع به أن يرفع رأسه فى المحافل الدولية ، والمنتديات العالمية ، وعنده من القدرة على المناورة ما يمكنه من إقناع الآخرين بمبادئه ، وتعاليم دينه ....

هذا صحيح ، لو خطط لهذه الدعوة تخطيطاً بعيداً عن :

- حماس الجماهير .
- وطموحات بعض الضعفاء من المفكرين ، الذين لاهَمَّ لهم سوى الكسب المادى ، والاستعلاء الأدبى بين الأميين ، وأنصاف المتعلمين .

- وسيطرة المؤسسات الرسمية ، التى تسعى إلى بسط النفوذ عن طريق الجانب الروحى ، حيث تكون قيادة الجماهير سهلة ، وتوجيههم إلى ما تريده السلطة الرسمية متاحاً وميسراً .
- وأخيراً – وهو الأهم – إذا استخدم العقل فى فهم التراث ، وتنقيته مما علق به عبر مسيرة التاريخ من أوهام وخرافات ، غيبت العقول ، وطمست الأفهام ، فأصبح المسلم سلبيًّا فى المجال الدنيوى ، متقوقعاً فى زوايا النسيان على خريطة الإبداع والابتكار ، ومتوارياً خلف الأستار فى ساحة التدافع والتسابق الحضارى ، واهماً أنه لن ينال رضاء الله إلا إذا اعتكف فى المسجد ليل نهار ، وعزف عن الدنيا وما يتعلق بها ، ونفر من الحياة ومتاعها ...

ومن يحاول تغيير هذا المفهوم فى ذهنه ، فهو إما زنديق ، أو متآمر مع الأعداء ضد الإسلام !!!

هل أمرنا الإسلام بهذا ؟؟؟

- عزوف عن الدنيا ، فلا نسهم فى حضارتها ، فنستعمر أرضها ، ونبحث فى أسرار خلقها ، ونستخرج من باطنها ما يفيدنا ، ونوجه ما عليها إلى يعود علينا بالمنفعة فى حياتنا ؟؟؟
- تقوقع داخل الذات ، والاكتفاء بالإطراء والتفاخر ، فلا نمارس شيئاً ، يفجر طاقتنا ويشحذ هممنا إلى العمل النافع للحياة ، وينمى فينا القدرة على الابتكار والإبداع ؟؟؟
- اهتمام بالفروع التى لا وزن – بل أحياناً لا أصل – لها فى مجال الالتزام بما أمر الله به ، وترك الأصول التى لا تسير الحياة إلا بها ، ولا تقوم حضارة إلا عليها ، فهى ركيزة أساسية فى بناء الحضارات ، وإرساء قواعد التقدم والرقى .

ماذا نفعل لنصحح هذا الخلل فى سلوكنا ؟

نعود إلى مبادئنا الإسلامية ، حيث تأمرنا فى هذا الصدد بالتواضع ، وعدم الخيلاء ، فقد قال رسول الله ﷺ : **" من تواضع لله رفعه . "** ، كما ورد فى الأثر : " رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى . " ؛ فهذه أول خطوة على طريق الإصلاح ، حيث يعرف امرء أخطاءه فيصححها ، ويدرك أنه محتاج إلى مزيد من المعرفة ، فيجب عليه بذل الجهد فى تحصيلها حتى يكون قادراً على بناء مجتمع عصرى ، له مقومات القوة والمنعة ، والعزة والكرامة .

٣. أقوال لا أفعال : من الآثار السيئة لمدح الذات انفصال الأقوال عن الأفعال ، حتى صارت لغتنا خطابية وعظية فقط ، لا صلة لها بالأعمال ، وهى ظاهرة تفشت فى المجتمع وتغلغت فيه ، حتى صار المناخ العام أن نسمع خطباً بلاغية تضرب بجذورها فى بطون التاريخ حتى قس بن ساعدة الإيادى ، ونقرأ مقالات ، ونطالع كتباً اعتنى مؤلفوها بالألفاظ ، دون الأفكار ، أو طرح كاتبوها خيالات لا صلة لها بالواقع ، فإذا بحثت عن صدى هذا فى المجتمع لا تجد له أثراً سوى رجع الصدى ، فكثر الكلام ، وقل العمل ، ونسى هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف : ٢ – ٣] ، حتى شاع عنا أننا **" ظاهرة صوتية . "**

فالكلام لا يجدى نفعاً ، إلا إذا كان صادقاً ، وصاحَبَه عمل ، ولا يمكن أن يصاحبه عمل نافع إلا إذا كان قائماً على أساس فكرى سليم ، ونظرة موضوعية ، بعيدة عن الهوى ، وخالية من شوائب التحيز للعصبية والطائفية .

٤. عدم الموضوعية : كذلك من الظواهر السلبية لمدح الذات : عدم الموضوعية ، وذلك بالحكم على الأشياء – والأشخاص أيضاً – بمنطق العاطفة ، وجبر الخواطر ، فإذا استفسرت من إنسان عن رأيه فى شخص ما ، فيكون الرد حسب هواه تجاه هذا الشخص ، أو طبقاً لما يراه من ظواهر حياته ، دون التفكير فيما وراء هذه الظواهر من صفات حقيقية ، فإذا كان هواه معه ، فهو طيب ، حسن الخلق ، كريم ...... إلخ حتى ولو كان على الضد من ذلك ، علم هذا أو جهله . وإذا كانت علاقته غير حسنة به ، وصفه بكل صفات المهانة والتحقير ، حتى ولو كان

قديساً . ونادراً ما يقول لك : إنى لا أعرفه ، أو معرفتى به سطحية ، فهو يرى فى ذلك نقص فى معلوماته ، فهى إهانة له ، فلا بد أن يعطى إجابة ، أى إجابة ، بصرف النظر عن مطابقتها للواقع .

٥. مخالفة القوانين : انتشرت هذه الظاهرة فى الآونة الأخيرة على نطاق واسع ، ليس فى طبقة معينة من طبقات المجتمع ، بل فى جميع طبقاته ، وإن اختلفت طرقها ، وتنوعت أساليبها ، طبقاً لدرجة الثقافة ، والوسائل المتاحة لكل طبقة ، ونوع العلاقة بالسلطة . ولما كان القانون هو التجسيد الحقيقى لضمير المجتمع ، فقد أصبح هذا الاختراق للقوانين عملية اغتيال لهذا الضمير . ومجتمع بلا ضمير لابد وأن تسوده كل مظاهر التفكك واللامبالاة والظلم الذى يعانى منه الجميع ؛

- ففوضى المرور اختراق لقوانين الدولة ،
- والاستيلاء على الأراضى بوضع اليد وبالقوة وبتزوير الأوراق اختراق لضمير المجتمع ،
- وتوزيع الحوافز بلا حساب على من لا يعمل من كبار الموظفين ، وترك الفتات لصغار العاملين ، اختراق لقوانين الدولة ، واغتيال لضمير المجتمع ،
- والاستيلاء على أموال البنوك ، والهرب بها إلى الخارج اختراق لقوانين الدولة ، واغتال لضمير المجتمع ،
- ونهب أموال الشعب من قبل رؤساء المؤسسات الإنتاجية اختراق لقوانين الدولة ، واغتيال لضمير المجتمع ..و..و إلخ . [٢٠]

وقد ظهرت مفردات لغوية تبرر هذا العمل ، وتنقله من خانة السلوك المرفوض إلى دائرة الافتخار به ، والتباهى بالقدرة على ممارسته ، منها : " الفهلوة " و " الشطارة " و " الجدعنة " .

والتحليل العلمى لهذا السلوك ، أنه — وإن اتسم ببعض الذكاء وخفة الدم — إلا أنه يقترن دائماً بالكذب والخداع والادعاء ، ويستخدم كسلاح سريع لتبرير سرقة المال العام ، والاعتداء على حقوق الغير ، وعدم الإتقان فيما يوكل إليه (أى الفهلوى المخالف للقوانين والأعراف) من

---

[٢٠]) حاد سليمان صـ ١٢٣

أعمال ، والحصول على ما لا يستحق من درجات ومكافآت ، والنصب على الآخرين . وهو ما يؤدى فى النهاية إلى استفحال ظاهرة نفاق الرؤساء ، وقلة الإنتاج فى المؤسسات ، وخراب ساحة الذمم ، وتدمير خطط الدولة ، وإجهاض طموحات الشعب .[٢١]

" والفهلوى فى التوصيف النفسى ، هو شخص لديه سمات "سيكوباتية " ، وليس بالضرورة أن يكون " سيكوباتيًا " بالمعنى الاصطلاحى المعروف . وهذا يعطيه قدرة على الخداع والمناورة ، فهو كثيراً ما يبدو خفيف الظل ، خفيف الحركة ، يغرى بالقدرة على تخليص الأمور الصعبة والمعقدة ، ويغرى بالرغبة فى المساعدة فى حل المشكلات العويصة ، فكل عقدة عند " الفهلوى " لها ألف حل ، وكل شخص عنده وله مفتاح وثمن . و" الفهلوى " لايحل المشكلات بالطرق المعهودة من العمل والمثابرة ، والتفكير والتخطيط ، وإنما بتخطى كل ذلك وبتجاوزه ، ويلجأ إلى الطرق الخلفية والخفية والسريعة ، بصرف النظر عن **مشروعيتها** . و" الفهلوى " بهذه السمات " السيكوباتية " يميل لأن يبدو مهذباً ، وهناك تعبير " السيكوباتى المهذب " ، والذى تراه فى مستويات وظيفية ، أو قيادية ، أو سياسية عالية ، يتحدث بهدوء وأدب ، ويعطيك شكل الأشياء دون جوهرها ، لأنه يعرف حرص الناس على الشكل ، فهو لا يصدمهم بانتزاع الشكل ، فيحافظ على الظاهر **قانونيًا** أو **أخلاقيًا** ، مع الاحتفاظ بحقه فى العبث بالجوهر ، أو انتزاعه تماماً بما يحقق مصلحته . والمحافظة على الشكل تحمى " الفهلوى " من المساءلة والانتقاد ، وتجعله قادراً على المناورة والدفاع عن نفسه ، إذا حاول أحد كشفه ، أو محاسبته ، وهذا مما يرسخ لسلوك " الفهلوة " ، ويحبط كل محاولات الإصلاح الجادة ، حيث تصطدم كل هذه المحاولات بأن كل شيء تمام على مستوى الشكل ، ولا تستطيع أن تثبت غياب المضمون ، أو تشوهه ، لأن " الفهلوى " (أو السيكوباتى المهذب) لديه القدرة على المناورة والجدال ، تلك القدرة التى ربما يفتقدها دعاة الإصلاح بحكم طبيعتهم المستقيمة والبريئة . " [٢٢]

ولكى نبنى مجتمعاً صالحاً ، قادراً على الإنتاج والإبداع ، يجب على كل الأجهزة الرسمية والشعبية ، وكذلك الأفراد ، كلٌّ فى موقعه ، محاربة هذه الظواهر ، ووضعها فى إطارها الصحيح

---

[٢١]) المصدر السابق صـ ١٢٦

[٢٢]) محمد المهدى صـ ٨

بأنها سلوك شاذ ، ومهدد لكيان المجتمع ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتربية الدينية : فى البيت والمدرسة ، وفى المؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام المختلفة بمنهج ملائم للعصر ؛ إذ تمر مجتمعاتنا الإسلامية بمرحلة من أدق المراحل فى تاريخها المعاصر ، حيث تعتصرها المشاكل العامة والخاصة ، وتحيط بها العديد من الأزمات السياسية والاجتماعية ، وتعتصرها التيارات الفكرية المتعددة المصادر ، والمختلفة المناهج والأشكال ، وفى وسط هذا الخضم من الأعباء الثقيلة ، ظهرت ردود فعل عديدة ، بعضها سلبى ، والآخر استغلالى ، وبين هذا وذاك أناس صفت نفوسهم ، وصدقت نواياهم ، فحاولوا دفع عجلة المجتمع إلى الطريق الصحيح ، ولكن محاولتهم لم توصلهم إلى الهدف المنشود ، إذ ذهبت جهودهم هباءً بسبب حقد الحاقدين وكيدهم ، ومكاء المنتفعين وضجيجهم ، وغفلة الغافلين وإهمالهم . ونتج عن هذا إصابتهم بنوع من الإحباط جعلهم أقرب إلى السلبية منهم إلى الإسهام فى حل مشاكل مجتمعاتهم ، لكن أصالة الفكر ، وصدق العزيمة ، وفوق هذا إيمانهم الصادق بوجوب العمل لخدمة المجتمع ، حال بينهم وبين الركون إلى السلبية المميتة ، ومنعهم من الانزواء بعيداً عن هذه المشاكل ، أو الانطواء على النفس إيثاراً للسلامة من رذاذ المنافقين القاتل .

ولكن ، كيف السبيل إلى العمل ؟ وهم لا يجدون مكاناً ينطلقون منه إلى العمل الجاد ، فقد سد المنتفعون المنافذ ، وأقام أصحاب الهوى المتاريس على الطرق ، وافتعلوا ضوضاء طغت على الساحة ، فلم يسمع الناس سوى ضجيج أجوف ، وأصداء لا هدف لها سوى صمم الآذان ، وإصابة الأعصاب بالتوتر .

لا سبيل سوى العمل الجاد فى كل الاتجاهات ، والاستمرار فى بيان المشاكل للناس ، وتبصيرهم بما يجب عمله حتى نتغلب على حالة اليأس الضاربة أطنابها فى نفوسهم ، ونزيل الحاجز النفسى بيننا وبين الانطلاق إلى حياة أفضل ، لا أقول : حياة تختفى فيها المشاكل كلية ، فذلك هدف مستحيل التحقيق فى الحياة الإنسانية ، بل حياة يغلب عليها طابع الارتياح النفسى ، والاعتداد بالذات ، والثقة فى قدرة الأمة على مواجهة المشاكل ، وتخطى العقبات التى تفرضها طبيعة الحياة وسط مجتمعات متعددة فى منهج حياتها ، ومتنافرة فى عقائدها ومبادئها .

فلن نستطيع التغلب على مشاكلنا إلا إذا تحقق الشعور بالانتماء الوطنى لدى أبناء الأمة ، وبالعزم الأكيد على بذل أقصى ما يمكن من جهد للخروج من عنق الزجاجة الذى وضعتنا فيه

الظروف التى مرت بها الأمة فى السنوات الماضية ، لكن هذين العنصرين لا يبرزان إلى الوجود بمجرد بعض من الخطب الرنانة وسط الجماهير ، أو عبر وسائل الإعلام المتنوعة ، ولن يظهر فى سلوك المواطنين وتصرفاتهم عن طريق القوانين واللوائح ، ولن يكونا من ملامح المجتمع المميزة له بين المجتمعات بواسطة التلقين والتكرار الممل الذى لا روح فيه ولا حياة ، ولا طعم له ولا لون ولا رائحة ، وإنما يكون بالتربية والتعليم الذى يستهدف غرس القيم الفاضلة ، والأخلاق الحسنة فى نفس الإنسان وروحه ، كى يتعود تلقائيًا على السلوك الحسن ، ويميل بالفطرة إلى أن يتعامل مع بنى وطنه على أساس الأخلاق الكريمة ، والشعور بوحدة الذات بين أفراد المجتمع .

ولن يتحقق هذا إلا إذا قامت التربية على أساس دينى ، لأنه :

أولاً : لا زال الإنسان – مهما بلغت درجة تقدمه ورقيه ، وتظاهره بالتحرر من القيود الدينية القديمة – واقعاً تحت تأثير التعاليم الدينية ، فلم يتحرر كلية من الخضوع فى الأوقات الحرجة لما يصدر من رجال الدين من توجيهات ، أو من الميل فى كثير من قراراته إلى ما تمليه عليه عاطفته الدينية ، والدليل على ذلك أن الأحزاب المسيحية لم تفقد السيطرة كلية على شعور الناخبين فى الدول المتقدمة التى أعلنت " رسميًا " أنها فصلت الدين عن السياسة ، كذلك ما زال كثير من شباب الغرب – الذى يصوره لنا بعض كتابنا بالتحلل والتنكر للمسائل الدينية – متعصباً لدينه أكثر مما نتصور ، وقد تأكدت من هذا بنفسى ، عندما كنت أدرس فى جامعة برلين الغربية فى العقد السابع من القرن العشرين ؛ إذ اعتادت المؤسسات الطلابية أن ترسل بعض أعضائها إلى إفريقيا فى رحلات " علمية "، فكانوا يعودون بأفلام ووثائق يقومون بعرضها وشرحها فى ندوات ثقافية ، فكان من الملفت للنظر أن مسألة انتشار الإسلام فى إفريقيا ، وتأثير هذا الانتشار على نشاط المبشرين فى هذه القارة ، كانت المحور الرئيسى لكل من يتحدث فى هذه الندوات عن مشاهداته فى إفريقيا ، سواء كان المتحدث طالباً فى الطب ، أم فى الهندسة ، أو كان دارساً للعلوم النظرية التى لها علاقة بالفكر البشرى النظرى . لفتت هذه الظاهرة نظرى ، وتساءلت عن السبب الذى

يحمل طالب الهندسة أو الطب على أن يترك البحث فى هذه القارة عما يساعده فى مجال دراسته ، فيتحدث عن الدين الذى هو بعيد عن الحقل الذى سوف يتخصص فيه !!!! إنه العاطفة الدينية التى لا تفارق الإنسان ، حتى وإن أعلن أنه نحى الدين جانباً ، ليتركز النشاط الإنسانى فى المجال الدنيوى بعيداً عن التأثير الدينى ، فالتأثير الدينى موجود دائماً ، ولذلك ينبغى أن نبدأ إصلاح الفرد من هذا الجانب ، لأنه سيساعدنا كثيراً فى الوصول سريعاً ، وبأسلوب لا سلبية فيه إلى الهدف المنشود .

ثانياً : لما كان الشرق هو مهبط الوحى ، وموطن الأديان السماوية ، فقد ارتبط الإنسان فى هذه المنطقة بالدين ارتباطاً وثيقاً ، ولهذا فإن أى حركة إصلاحية لا يكون الدين أساسها فمصيرها الفشل ، حتى وإن أحرزت بعض الانتشار فى أول عهدها ، فشعوبنا لا تعرف غير الدين لغة للتخاطب ، ولا ترضى بنظام يتنافى مع الدين قانوناً لها ، ولا تسمع لمتحدث لا يعلن من أول الأمر أنه يتخذ الدين سبيله فى الإصلاح ، وطريقه فى التربية والتعليم .

ولكن ، **أى أسلوب ينبغى أن يتبع فى سبيل إصلاح الأمة على أساس دينى ؟**

أهو العنف الذى تمارسه بعض الجماعات الدينية لقلب أنظمة الحكم ليحل محلها النظام الإسلامى ؟

أم هو الطريقة التقليدية التى ينهجها معظم الوعاظ وعلماء الدعوة من التخويف من النار وعذابها ، والتغنى بالجنة ونعيمها ، تاركين المجتمع ومشاكله ؟

أم هناك طريق آخر أكثر صلاحية ، وأقرب إلى روح الإسلام وتعاليمه !!!!

obeikan.com